المحاضرة السادسة

مقاومة أحمد باي

ولد أحمد باي سنة 1784م من أسرة كرغلية من بايلك قسنطينة أبوه هو محمد الشريف وجده أحمد باي القلي، وأحمد من عرب الصحراء، نشأ يتيم بعد وفاة والده خنقا، وقد تميزت شخصية أحمد باي بالذوق الرفيع والقوة وهي خالية من الأحاسيس والعواطف، اكتسبها من البيئة الصحراوية التي عاش فيها وأخذ منها صفات كالرجولة والمروءة والشهامة والحذاقة، وهذا بفضل تربيته التي نشأ عليها بين أخواله ما جعله عربي الطباع فتكونت شخصيته في قالب صحراوي.(1)

ويعتبر أحمد باي آخر بايات مدينة قسنطينة وهو من الشخصيات البارزة والتاريخة في تاريخ المقاومة الجزائرية كما اهتم بالجانب الثقافي والعمراني لمدينة قسنطينة باعتباره رجل علم وثقافة، وجعل منها حاضرة تنافس مدينة الجزائر ووهران تميز عمرانها بالطابع الإسلامي الأصيل وتعددت فيها المدارس وعم فيها العلم وأصبحت تضاهي حتى تونس والقاهرة علميا حسب تقارير فرنسية.

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر أعاد الباي تشكيل جيش منظم، واعتنى بتدريبه على خوض الحرب وأعاد ترميم أسوار المدينة وعين مواقع المدافع، لأنه كان على علم أن بأن المستعمر الفرنسي سيشن حملاته على مدينة قسنطينة، فكانت تقدر قواته بمائة خيمة وكل خيمة بها ثلاثون جندي، ولقلة جيشه أعد الباي قواته العسكرية إعدادا محكما بذل كل ما بوسعه لتعبئتها بالمؤن والعتاد الحربي، وقام بتعبئة الجماهير القسنطينية تحسبا لأي إعتداء فرنسي على بايلكه وعمل أيضا على تحصين قواته في ثكنات وأبراج داخل وخارج عاصمته قسنطينة.(2)

مراحل مقاومة أحمد باي:

عرفت مقاومة أحمد باي تقسيمها إلى مرحلتين أساسيتين سارت على النحو التالي:

المرحلة الأولى (1830-1837):

يعتبر أحمد باي من أوائل المقاومين للاحتلال الفرنسي عند دخوله لمدينة الجزائر حيث خاض ضدهم عدة حروب ومعارك في سبيل الدفاع عنها والحاق الهزائم بالمستعمر وكان ذلك بأمر من الداي حسين آنذاك، وبعد استيلاء الفرنسيين على مناطق مهمة من الجزائر قام أحمد باي بالانسحاب والعودة إلى قسنطينة النى كان العنصر التركي فيها قد أعد لإنقلاب ضده وعينوا مكانه حمود بن شاكر، إلا أنه احتوى هذا الصراع واستعاد مكانته وونظم جيشه المتكون من الجزائريين فقط لمواجهة المستعمر الفرنسي.

الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة1836:

بعد استيلاء الفرنسيين على مناطق عدة من الساحل الجزائري توجهت أنظارهم إلى بايلك قسنطينة بالنظر إلى أنه من أغنى المناطق في الجزائر وأوسعها، حيث أنها مثلت في نظرهم منطقة استراتيجية يمكن السيطرة من خلالها على بايلك الشرق، فقام كوزيل بإعداد حملة عسكرية تعدادها 8700 جندي والذي كان يطمع في تحقيق إنتصارات كبيرة بعد الهزيمة التي ألحقها به الأمير عبد القادر، فخرجت الجيوش يوم 15أفريل 1836 من مدينة قالمة لمواجهة جيش أحمد باي الذي اعتمد عملية الكر والفر لإضعاف صفوف الفرنسيين وأحدث خسائر فادحة بينهم، هذه المعركة مني فيها المستعمر الفرنسي بهزائم كبيرة هزت وزعزعت الجيش الاستعماري بعدما فوجئ بصلابة جيش أحمد باي وشراسة مقاومته.

الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة1837:

بعد الهزيمة التي لحقت بالاحتلال الفرنسي في حملته الأولى للسيطرة على بايلك قسنطينة حشد كل طاقاته وإمكاناته البشرية والعسكرية لإعادة شن حملة جديدة على المنطقة، ومن اجل هذا قام بإبرام معاهدة مع الأمير عبد القادر وهي معاهدة التافنة في 30 ماي 1837، بغية التفرغ لغزو بايلك الشرق وتجنب الحرب على الجبهتين الشرقية والغربية.

وفي 6 أكتوبر 1837 وصلت الجيوش الفرنسية إلى حدود منطقة قسنطينة بقيادة دامومون والذي قام بتدارك أخطاء الحملة الأولى وهاجموا على جبهتين وعملوا على إضعاف قوة الجيش الجزائري بقيادة أحمد باي، وتمكنوا من احتلال مدينة قسنطينة بعد حصار دام 8أيام رغم المقاومة الشرسة التي واجههوا من سكان المنطقة.

المرحلة الثانية من المقاومة(1837-1848):

رغم سقوط مدينة قسنطينة في يد الفرنسيين سنة 1837م إلا أن أحمد باي لم يستسلم وظل يحشد جنوده ويقوي جيشه لمواجهتهم واسترجاع ماسلبه منه المستعمر، وعمل على إقامة تحالفات مع القبائل المجاورة لدعم صفوفه بأكبر عدد ممكن من المحاربين، بعدما قام الاحتلال بتكثيف قواته وزيادة عددهم في المنطقة وبلغوا حوالي 1400 جندي فرنسي، إلا أن أحمد باي خسر ضد الاحتلال الفرنسي وطلب منه الاستسلام الرحيل إلى فرنسا لكنه رفض ذلك وانسحب رفقة قواته إلى الصحراء لحمايتها، وقام خاله بوعزيز بن قانة بطلب مساعدته لمحاربة عدوه فرحات بن السعيد ثم محاربة الفرنسيين، إلا أن هذه الخطة كانت بمثابة طريق الهلاك بالنسبة لأحمد باي فيبنما كان منهمكا في كسب دعم القبائل وولائها لإعادة مهاجمة الجيش الفرنسي قام خاله بالانضمام إلى لصفوف الفرنسيين طمعا في النفوذ في منطقة الصحراء.

وظل أحمد باي ينتقل من منطقة لأخرى محاولا عدة مرات مجابهة الاستعمار إلا أن فشل في ذلك وحاصرته القوات الفرنسية وطلبت إليه الاستسلام فقبل بذلك شرط السرية في ذلك، وبتاريخ 5 جوان 1848م سلم أحمد باي نفسه في بسكرة وقاموا بنقله إلى الجزائر العاصمة وعاش هناك، ولم يسمحوا له بالهجرة إلى البلاد المقدسة وبقي على انتظار حتى وافته المنية في مارس 1850م عن عمر ناهز 65 سنة حيث دفن في مقبرة سيدي عبد الرحمان الغزالي.(3)